نظام الإرث.. الإنسان.. والبناء وسورة النساء

« ١ »

في حديث موصول بالكلام على ما صحب الدعوة من تنديد بما عليه الجاهليون من الظلم وكيف كانت المرحلة التنظيمية في العهد المدني: وجدنا أن نذارة القرآن سدنة الجاهلية في العهد المكي ظلمهم وجفوتهم للإحسان بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ تحولت بمنهجية تكرم الإنسان وتحفظ الحقوق في العهد المدني ــ حين أصبحت كلمة الإسلام هي التي تقود المجتمع ــ إلى تشريع يحكم الناس وينظّم شؤون التوارث فيما بينهم، الأمر الذي يتسق مع نظرة الإسلام إلى الإنسان ذكراً كان أو أنثى وتقعيد القواعد التي ترتفع بالفرد والجماعة إلى إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص.

وسبب نزول آيات الإرث يقفك على عملية التغيير، تحويلاً إلى ما هو الحق والحفاظ على إنسانية الإنسان، كما أراد ربنا تبارك وتعالى، فأين الظلم وأكل الحقوق بضوابط جاهلية، من العدالة الإلهية وإعطاء كل ذي حق حقه، ذكراً كان أو أنثى، صغيراً، أو كبيراً. روى ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت أم كحّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء وأنزل الله تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴿٧﴾﴾.

هكذا تنصُّ الآية على أن حق الإرث كائن للذكور والإناث جميعاً؛ فهم متساوون في أصل الوراثة ولكلٍ نصيب مفروض فيما قلَّ أو كثر من المال الموروث، وقد يتفاوتون بحسب ما فُرض لكل منهم في نظام الإرث.

وهذه المرأة ـ كما نرى ـ كان ذووها ـ والله أعلم ـ لا يريدون توريث بنتيها ولا توريثها مطلقاً؛ بناء على أن الجاهليين ـ كما أسلفنا من قبل ـ يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، عملاً بضابط القدرة على حمل السلاح والدفاع عن الحوزة. وروى الإمام أحمد أن امرأة سعد بن ربيع رضي الله عنه جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في يوم أُحُد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنكحان إلا ولهما مال. قال عليه الصلاة والسلام: «**يقضي الله في ذلك**» فنزل قوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾**﴾ [النساء: ١١].

وبعد: فسبحان العليم بما يصلح عباده. لقد كان جسر البناء متصلاً بين العهدين المكي والمدني، فالاستنكار في العهد المكي تُرجم إلى تشريع ينظّم حالات التوارث كلها في العهد المدني، حيث انتصرت راية الحق، وأخذ المجتمع الأمثل طريقه إلى الوجود العملي.

هذه القضية جزء من نظام فريد في دنيا الإنسان هو نظام الإرث في الإسلام، ولا عليَّ أن أعود إلى ما قلت آنفاً من أنه لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات التي فصلت أحكام الإرث في سورة النساء، بمنهج فريد متميز لم يسبقه أيُّ نظام قبله، ولا لحقَ به نظام بعده.. أقول لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات لكفى ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾**﴾[النساء: ٨٢].

تلك هي سمة البناء الحكيم، وتلك هي طريقة القرآن في تنمية فاعلية المجتمع وإعطاء كل ذي حق حقه لتدور عجلة العمل والعطاء، كما ينبغي.

أجل بعيداً عن المظالم التي تفوق مسيرة الخير وتقهر الإنسان. وإنها لقواعد مبرأة عن الخلل والظلم، أرستها معالم الكتاب العزيز على منهاج لم يدع في حراسة الحق وكرامة الإنسان والحفاظ على كيان المجتمع المسلم، في الاجتماع والاقتصاد وتحقيق التكافل والتضامن: زيادة لمستزيد.

المهم أن نستهدي بهديها، وأن نفيد من زاد التجربة عطاءً في ظلها واعتزازاً بسلطانها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

نظام الإرث.. الإنسان والبناء وسورة النساء

«٢»

أجدني مضطراً بين حين وآخر إلى التذكير بأني أعرض للقضية التي يوحي بها المعلم القرآني بالقدر الذي يحتمله المقام، تاركاً التفصيل لمظانه، انسجاماً مع العنوان العام لتلك القضايا التي تشرق بها الكلمة الهادية في الكتاب العزيز، وفي بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وإن كان الأمر الأخير غير مطّرد.

من هنا كان الذي ألمحت إليه فيما سلف من القول حول نظام الإرث في شريعتنا المباركة: مقصوراً على التذكير بالخطوط العامة لهذا النظام الذي تنزل به الكتاب العزيز بديلاً لخليقة سارية في الجاهلية المستحكمة، والضاربة على القلوب والعقول بالأسداد عند العرب وغيرهم وهي الظلم في التوارث، وجاء التنديد بتلك الخليقة تحت العنوان الذي يتلوه التالي وله بكل حرف عشر حسنات؛ ذلكم قول الله جلَّ ذكره في سورة «الفجر» خطاباً لمشركي قريش: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ وذلك بعد قوله سبحانه: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ فالجاهليون لا يكرمون اليتيم، ولا يحث بعضهم بعضاً على طعام المسكين، ويتوارثون وفق عرف جاهلي مقيت...

والذي ما بدٌّ من التنبيه عليه ــ ونحن نستهدي لما نريد من سلامة البنية، بشتى فروعها وصورها في المجتمع، ونماء طاقاته الفاعلة المنتجة ــ: هذا التفصيلُ الذي يقع عليه المرء في الكتاب العزيز لأحكام الإرث؛ فترى النصَّ على الثلثين، والثلث، والنصف، والربع، والثمن، والسدس، وحكم إرث الكلالة وما إلى ذلك، ناهيك عن التفصيل في الورثة، ومواقعهم من التركة. ناهيك عن أسباب الإرث، وموانع الإرث، وكل ما يتصل بذلك.

والعهد قريب بما روى الإمام أحمد في المسند من واقعة امرأة سعد بن الربيع رضي الله عنها وبنتيها حيث احتاز العم ـ بعد استشهاد سعد ـ التركة لنفسه دون الزوجة والبنتين، على ما كان في العرف الجاهلي، ونزل قول الله تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

والآية الثانية عشرة التي تلي هذه الآية، وكذلك الآية الأخيرة من سورة النساء تسيران على النسق نفسه من هذا البيان المعجز.

يقول الله تبارك وتعالى في الآية التي تلي: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وتطالعنا الآية الأخيرة من هذه السورة المباركة ـ والقرآن مبارك كله ـ بقوله جل ذكره: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

ولشدّ ما يزيدك هذا التفصيل الذي تناول كل نصيب بعينه حسب الموقع الذي يأخذه صاحبه من التركة.. لشدّ ما يزيدك يقيناً بأحقية هذا الكتاب الذي تنزل وحياً من السماء، وبصلاحية هذه الأحكام للعباد ـ أن لو استقاموا على الطريقة في الأخذ بها ـ وأنت واجد أن لهذا الأسلوب المعجز في بيان تلك الحقوق مغزاه ـ والله

أعلم ـ في الحفاظ على حقوق الوارثين بدءاً من القناعة الإيمانية وانتهاء بالقضاء والتنفيذ، وذلك بعد الفوضى الجاهلية في العالم، وسلطان ضوابطها الظالمة؛ حيث الحقوق مهدرة، وبخاصة ما يتعلق منها بالنساء.

وطرائق الإرث في جاهلية هذا العصر تؤكد هذا الذي نقول؛ حيث تفردت الشريعة الإسلامية في المقابل: بأن الأحكام التفصيلية للتوارث ـ إلا ما ندر ـ قد أوحي بها نصاً إلى رسول الله ﷺ.

وهكذا شاء المولى سبحانه أن يكون وعاءُ تلك الأحكام آياتٍ مباركات في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزلها بواسطة جبريل عليه السلام على نبيه المصطفى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان ذلك في المجتمع الذي يقهر فيه الحق ويظلم عند التوارث النساء والأطفال، ويحتاز الأقوياء الأشداء تركة الميت وفق أهوائهم دون نظر إلى أي اعتبار آخر.. والأنكى من ذلك أن هذا الصنيع المنحرف كان لا يتنافى عندهم مع الكرم والبذل في وجوه أخر.. ولكنها الجاهلية!!.

والحق أن لهذا التفصيل الذي نومىء إليه قصة تتعلق بأحكام القرآن جملة، ومنهج هذا الفرقان الحكيم في التشريع؛ فقد جاءت أحكام وفيرة في القرآن وطابعها طابع الإجمال والعموم ـ وهذا من حكمة ربنا جل جلاله وله سبحانه الحكمة البالغة ـ وجاءت السنة بتفصيل المجمل، وقد تُقرر، وقد تؤكد، وقد تخصص العام، وتقيد المطلق.. إلى غير ذلك من ألوان البيان الذي أؤتمن عليه النبي صلى الله وسلم وبارك عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالمبيَّن: القرآن الكريم ـ وهو الوحي المتلو ـ وبيانه: السنة المطهرة وهي الوحي غير المتلوّ؛ والناظر في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي تزخر بها دواوين السنة المطهرة يجد ـ بيسر ـ مصداق هذا الذي نقول؛ وذلك كما في النصوص التي

تبين أحكام الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وقل مثل ذلك في النصوص التي تبين أحكام المعاملات بين الناس من عقود وغيرها.. وكثير من أحكام الأسرة في الزواج والطلاق والوصية، والإرث ــ على قلة ــ ومثل ذلك: أحكام العلاقات بين الحاكم والمحكوم والولاء والبراء، والعلاقات الدولية، ما للدولة المسلمة وما لغيرها في حالات السلم والحرب مع الدول الأخرى.. وهذا التعداد على سبيل التمثيل لا الحصر والقضايا التي فصلتها السنة ببيان مجمل أو تخصيص عام أو تقييد مطلق وما إلى ذلك كثيرة وفيرة تطلب في مظانها من كتب التفسير والحديث والفقه والأصول.

وإنها لقضية جذرية كبرى أعطت ــ بحكمة الله البالغة ــ شريعة الإسلام قدرة فائقة منسجمة مع مصالح العباد وفطرهم ــ على استيعاب شؤون الحياة وتقديم الحلول للمشكلات الطارئة، والوقائع المتجددة في المجتمع الإسلامي الجديد على سعة الرقعة الإسلامية في الفتوح، وما واجهته الشريعة من موروثات حضارية وأعراف معقدة، حيث لم يكن شيء من ذلك بعائق عن الاستيعاب الذي نومىء إليه، بل لم يحتج الأمر إلى الإعلان عن حقبة انتقالية للتطبيق.

وغير خاف أن الاجتهاد ــ بحدوده الموضوعية وعدم تجاوزه النصوص ــ قد لعب ــ على يد العلماء الأكفاء والأمناء أئمة الهدى ــ دوراً بارزاً على صعيد هذا البناء التشريعي البالغ الإحكام.

غير أن أحكام الإرث ــ كما رأينا ــ وأحكام الحدود والكفارات وبعض الأمور الأخرى جاءت ــ في الأعم الأغلب ــ مفصَّلةً محدَّدة بنص الوحي إلى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فأنت واجد في كتاب الله ــ مثلاً ــ أن حدّ القتل كذا، وحدّ القذف كذا، وحدّ الزانية والزاني كذا على تفصيل في المحصن وغير المحصن. وقل مثل ذلك في حد الحرابة التي سداها ولحمتها محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض فساداً، وفي تحديد الكفارات في الإيمان، والقتل الخطأ، والظهار.. إلى غير ذلك مما لا يحتمل المقام استقراءه.

ولعل الحكمة التي يراها المسلم في تحديد أنصبة الإرث، بعد تحديد أن التوارث ــ في الأصل ــ حق للذكور والإناث والصغار والكبار: هديه إلى الحكمة في الحدود والكفارات.

وإلى أن تتاح فرصة المتابعة لرحلة الانتفاع بهدي المعلم القرآني الذي أضاء لنا هذه الطريق، وذلك بكلمات يقتضيها الكشف عن جانب من جوانب البناء في المنهج الرباني يتشابك فيه الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي في ظل الحرص على إنسانية الإنسان كما قرر ذلك الإسلام.. أرجو أن يكون لنا من هذا الوجه من وجوه الهداية في معالم الكتاب الكريم: مزيد من اليقين بأن خالق الإنسان والكون ومبدع سنن الحياة في الوجود: هو أعلم بشؤون عباده وما يصلحهم، الأمر الذي يجعل من شريعته الميمونة سبيلاً أمثل للبناء القويم الأمثل، مهما تعددت جوانب هذا البناء، وأحدث نهر الحياة بتدفقه من ضرورات وحاجات ومتممات.

نظام الإرث.. والبناء وسورة النساء

«٣»

أعود مرة أخرى إلى التذكير بالأهمية التي ينطوي عليها تفصيل القرآن الكريم لأحكام التوارث بين المسلمين وتحديد أنصباء الورثة.. وما لذلك من أثر في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي في الأسرة والمجتمع؛ ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء من الترغيب في التزام هذه الأحكام، لما أنها من حدود الله، والعمل بها طاعة لله ورسوله مجزيَّة عند الله بالرضا الذي هو بغية كل مؤمن، والفوزِ بالجنة في الآخرة، ثم ما جاء من الترهيب من مخالفتها وتجاوزها، لما أن ذلك تعدٍ لحدود الله، وتعدي حدود الله معصية لله ورسوله. وجزاء ذلك جهنم وساءت مصيراً. ذلكم قوله تعالى بعد الآية الثالثة من الآيات التي جاءت على أحكام التوارث في سورة النساء، وذلك في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي آخر آية من آيات أحكام الإرث في سورة النساء وهي الآية التي ختمت بها السورة، نجد التنبيه الواضح على أن هذا البيان من الله تعالى إنما كان تجنباً للوقوع في الضلال الذي هو تجاوز الحقوق، وما يحدث من آثار سيئة في عالم الأسرة والمجتمع، كما نجد التحذير من سلوك السبل الملتوية التي يراد من ورائها إضاعة حق أو العدوان على نصيب، ذلكم قوله تعالى:﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النساء: ١٧٦].

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي أن المرء لا يكاد يشك فيما يقوله الباحثون ـ وبخاصة الاقتصاديين منهم ـ أن من حكم نظام الإرث في الإسلام، تفتيت الثروة، وعدم تمركزها في يد واحدة كما هو عند الآخرين. وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق من القول، ولكن هذا ينبغي أن لا يحول دوننا ودون استشعار الحكمة الاجتماعية بجانب هذه الحكمة الاقتصادية؛ فمما لا ريب فيه أن هذا التنظيم التفصيلي ـ إن صح التعبير ـ لأحكام الإرث وهو غاية الغاية في الدقة، يحدث نوعاً من الحياة في البنية الاجتماعية للأسرة والقرابة بشكل أعم، وهي حياة ترى معها ـ في ظلِّ أحكام الشريعة ـ لوناً من ألوان الأخذ والعطاء وترسيخ العلاقات التي تكون أمتن وأمتن إذا التزمت حدود الله.

يهدينا إلى ذلك ما جاء في واحد من المعالم القرآنية من أمر بإعطاء الأقرباء الذين لم يكن لهم نصيب من الإرث: حظاً من التركة إذا حضروا القسمة وأن يقابلوا بقول المعروف والكلمة الطيبة. وفي ذلك ما فيه من توثيق عرى المحبة والود، واستلال السخائم من النفوس، وما يحدث من انعكاس خيِّرٍ على بنية المجتمع.

فالمطلوب أن يسهم الورثة في رفع مستوى أقربائهم الاقتصادي برغبة جدية صادقة ابتغاء مرضاة الله، وأن يكونوا عوناً لهم في طمأنينة أنفسهم كيما يكونوا قادرين على العطاء، لا يعوقهم عوز أو ضعف، أو وضع مالي معين، عن أن يكونوا لبنات صالحات في المجتمع، وصورة صحيحة عن نموه وتطوره إلى ما هو الأجدر والأولى بمن ينتمون إلى خير أمة أخرجت للناس.

فبعد الآية الأولى من آيات الإرث وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴿٧﴾ ﴾ نقرأ قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾.

وطبعاً الخطاب للمؤمنين الذين يفترض أن يكون امتثال أمر الله أعزَّ لديهم من مال الدنيا جميعه، كما يفترض أنهم موقنون بالآخرة، وأنه لا ينفع يوم الحساب مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الواقع: إن تفرد الإسلام بخاصية التنظيم الموضوعي الدقيق لشؤون الاجتماع والاقتصاد، بجانب تنمية مشاعر الإيمان واليقين بما عند الله: هو الكفيل ـ أن لو فعلنا وأحسنَّا الاتباع ـ بنقلة جديدة إلى خير مما نحن فيه، خصوصاً وأن ذلك لا يحجز بيننا ـ على طريق التنمية والبناء ـ وبين الإفادة مما عند الآخرين ما دمنا على الجادة فيما تمليه العقيدة وتحكم به مقاصد الشريعة وتوجبه أخلاقية الإسلام. وأين هذا كله مما كانت عليه جاهلية الأمس المتمثلة في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ ثم ما نراه في الحضارة المادية البحتة المبتلاة بالحرج في شأن التوارث بين الأقرباء ومعاونة من لا يرثون!!.

من روافد البناء.. في سورة الفيل

يبدو من حصيلة ما يعطي المعلم القرآني في سورة «الفيل» على هدي التتبع لجزيئات الرحلة التي قادها أبرهة الأشرم، وما كان من المقدمات التي كانت في جانب، والنتائج التي كانت كما شاء الله أن تكون في جانب.. أن مما يوقع في بحران التيه عن الحقيقة، ويسلم إلى التشتت في الحكم على الواقعة التاريخية، والإفادة منها ــ على ساحة البناء ــ عند رصد الوقائع وما تخلف من آثار، ويحول دون تنمية القدرة على تجاوز الصعاب: أن تفسَّر الوقائع بعيداً عن ضوابط العقيدة التي فجَّرت طاقات الإنسان في الإسلام، ودفعت به إلى خضم الحياة طاقة بناءة ــ بإذن الله ــ على كل صعيد وفي كل ميدان.

وكذلك مما يجعلنا نضرب في حديد بارد، ونسلك الطريق التي تعود على ما نريد بالنقض عند مواجهة الوقائع والتعامل معها من زاوية تفسير التاريخ: أن تعلَّل الأحداث في غفلة عن سنن الله الماضية في خلقه ــ وما أكثر الأمثلة على ذلك ــ وهي سنن لا تتبدّل ولا تتحوَّل في ربطها بين المسببات والأسباب، والكليات والجزئيات، ربطاً محكماً يجري ــ في نطاق القضاء والقدر ــ دالاً على قدرة الله وعلى المحيط وحكمته البالغة فيما كان وما يكون..

فهو عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، المهيمن العليم بذات الصدور، القادر القهّار الفعّال لما يريد.. وهذا لا يعني إهمال الأخذ بالأسباب التي هي من سننه الماضية سبحانه.

وانظر إلى قوله تباركت أسماؤه: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن وجهة النظر التي تنسجم مع طريقة التفكير الإسلامية التي عمادها أن النص متبوع ونحن تابعون، وأن من وظائف العقل أن يفهم النص، ويجتهد فيما لا نص فيه.. أقول: من هذه الوجهة: إذا روعي ما سبقت الإيماءة إليه: فقد وضعت الأمور مواضعها، وضمنت الإفادة من ارتباط حلقات التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ـ بإذن الله تعالى ـ ووجدت الأمة ذاتها، فنظرت بأعينها هي، وحكمت على الوقائع من خلال منهجها الذاتي المتميز، ولم تنظر بعيون الآخرين لترى ما يرغبون أن يُرى، ولم تستبعد المنهج الفكري الذي لا يمت إلى وجودها الذاتي بصلة.

فأين الظلمات من النور؟ وأين الكفر من الإيمان؟؟

إنه لم يكن عبثاً من العبث ـ ولله الحكمة البالغة وله المثل الأعلى ـ أن يتنزل بواقعة التبييت الخاسر الماكر للبيت العتيق، وما حصل من ردّ الطغاة على أعقابهم خاسرين: قرآنٌ يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وللتالي بكل حرف عشر حسنات، وأحكمت له سورة قائمة برأسها هي «سورة الفيل» وأن تكون على قلة آياتها ووجازة كلماتها إعلاناً في العالمين يتجاوز حدود الزمان والمكان يزخر بانتصار التوحيد على الكفر والضلال، وغيرة الله على بيته العتيق بإهلاك الذين دبَّروا وبيتوا، شر هلَكة وإخزائهم أمام الناس والتاريخ!!.

ذلك بأن تفسير هذه الواقعة، والإحاطة بأسبابها وما صحبها من الإعداد، ووليها من النتائج... من قبل الفئة المؤمنة ـ مهما تباعد الزمان ـ على النهج الذي يتضح من خلال ما حصل من غيرة الله جل جلاله على بيته ـ مع تذكير قريش بها، كيما تتحول إلى ساحة الحق ـ: رافد من أعظم الروافد المنتجة على طريق الأمة، في أن تكون حصيلة تفسيرها لتاريخها، وحكمها على تاريخ من قبلها: طلباً للعبرة والانتفاع في ضوء الهدي القرآني، حين أشرقت بذلك معالمه، والمسلمون يصارعون الباطل وأهله، ويعملون على إرساء قواعد البناء المنشود، وتنمية الحس الداخلي بطبيعة الواقعة التي تلقيها على طريقها الأيام ـ وما أكثر ما تلد الليالي من وقائع ـ وما هي نسبتها من الرسالة التي يعمل تحت لوائها العاملون!

من أجل هذا: كان الإلحاح على أن تكون الأمة على الاحتفاظ بقوة الذاكرة، فلا تُثقَب ولا يُهمَل ما تحمله في طياتها، وعلى أن يكون التعامل مع آثار ما حصل في التاريخ وما يحصل: في ضوء عقيدة التوحيد، وسنن الله الماضية، والوفاء بعقوده التي عقدها كل مسلم ومسلمة على نفسه مع الله، مصحوباً ذلك كله بحسن النظر في العاقبة التي آل إليها المحسنون، والعاقبة التي آل إليها المسيئون.

ومن أجل هذا أيضاً: كان من نافلة القول التذكيرُ بأن ذلك كله مدعاةٌ ــ بتوفيق الله ــ لإحكام العمل، وسلامة البناء، وحافزٌ لإنماء الكفاءات القادرة على استيعاب وقائع التاريخ، فهماً وسلامة نهج في الاعتبار، بحيث يجتنب الخطأ، ويلتزم الصواب، في تبيُّنٍ واعٍ وتام للعوامل التي من أجلها كان الخطأ خطأ، وكان الصواب صواباً؛ الأمر الذي يحول دون الأمة ــ وهي تواجه مسؤولياتها على الصعيد الداخلي، والصعيد الخارجي في أداء رسالتها للعالمين ــ ودون الغفلة عن أبعاد التحدي الذي يحمله الواقع وما فيه ومن فيه، وما يجب من العمل ــ بعلم وحكمة ــ على طرح الركام، وإزالة العقبات قدر المستطاع، كيما تديل للحق من أهل الباطل العادين على الأرض، والثروة، والفكر، والأخلاق، والمقدسات.

مرة أخرى: إن الوقفة المتأنية المتدبرة عند الذي كشفت عنه سورة الفيل ــ وأمثال ذلك كثيرة في القرآن الكريم ــ وأن ما حصل عند انعدام الأسباب الأرضية مما تحدثت عنه السورة وأخبرت عن وقوعه: كان بقدرة الله وحده.

أقول: إن هذه الوقفة المباركة البنَّاءة كفيلة أن تمدّنا ــ بعون الله ــ على طريق تحصيل الوعي، ومواجهة التحدي المتجدد بلا انقطاع: بالكثير من العطاء، والحصانة من الغفلة وفقدان الذاكرة وأن تمدنا بنور من نور الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

سورة الذاريات.. والبناء

هذه أربعة عشر قرناً تمضي، وهي مثقلة بالأدلة الواقعية التي تعلن إعلانها في توكيد ليس بعده توكيد لحقيقة: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأنه لا بد ــ عن طريق البناء ــ من تنمية القناعة الإيمانية الواقعية بهذه البدهية الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لمن لا يشكون الرمد المستعصي، كيما تكون القناعة بهذه الحقيقة نقطة البدء في التغيير إلى ما هو الأفضل، وذلك على هدي الكثير من معالم الحق في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ومنها قول الله تباركت أسماؤه في خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

ومما أسلفناه من القول على هذه الساحة التي نصطحب معها طرفاً من معالم الكتاب العزيز: ما يتبدَّى للتالي المتدبر من عظم الحقيقة التي قررتها آية كريمة من سورة «الذاريات» المكية، وهي قول الله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والأهمية البالغة لما تلا ذلك من قوله سبحانه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

وفي نقلة إلى دنيا الواقع: وقفنا المعلم القرآني الذي تشرق به الكلمات الهاديات في تلكم الآيات، على ضرورة أن يكون في الحسبان دائماً تبصير الأجيال ــ علمياً وتربوياً وثقافياً ــ بتلك الحقيقة أفراداً وجماعات، وبخاصة من أكرمهم الله بأن

يكونوا على الطريق الصاعدة في السفر القاصد إلى جمع القلوب والعقول على دعوة الله، فلذلك من الآثار الفاعلة، ما ينعكس على تطلعات الأمة، وتحفزها لمسيرة ظافرة بإذن الله.

ذلك بأن عظم الغاية يثير البواعث الحقيقية في نفوس البُناة أهل الإيمان، وينمي الحوافز التي ترقى بأصحابها ــ مع العلم ومعرفة الواقع ــ إلى مستوى المواجهة الواعية المدروسة للتحديات أياً كان لونها، أو الدافع إليها.

وليس عجباً من العجب أن تتنزل هذه الآيات ونظائرها في العهد المكي ــ عهد الإعداد النفسي بالإيمان والصبر ــ، ورحى الصراع بين الشرك والتوحيد دائرة على أوسع نطاق، ومحاولةُ فتن الفئة القليلة المؤمنة عن دينها بشتى الأساليب القمعية وغيرها، لا تهدأ ليل نهار..

إنه ليس عجباً من العجب والأمر كذلك: ولكن الذي يجب الوقوف عنده: ما يعطي ذلك من الأهمية البالغة لما ينبغي من الجودة في إعداد الإنسان على تمثل الحقيقة قلباً وعقلاً، ووضعها موضع الموجه الأساسي في حياته، والعمل على تكييف تحركه ليكون وفق تلك الحقيقة!.

من أجل هذا ــ والله أعلم ــ ختمت السورة بشديد الوعيد للكفار، وهو أن لهم من العذاب مثل عذاب من سبقهم، وكانوا على طريقه حذو القُذة بالقذة.

ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

إن هؤلاء الكفار، بما كانوا يواجهون دعوة التوحيد من الإعراض والأذى باستكبار ودأبٍ كانوا يؤذون الإنسان ــ بوصفه إنساناً ــ أنّى كان وحيثما وجد، ويقفون حجر عثرة دون البناء القويم الذي يراد له من قبل أهل الحق بقيادة النبي عليه الصلاة

والسلام، أن يأخذ أبعاده هنا وهناك ـ لا تستثن ميداناً من الميادين ـ في نجوة من أوضار الجاهلية وعقابيلها، وعوامل تعويق الإنسان عن الخير على صعيد كل من الفرد والأسرة والقبيلة والمجتمع.

وفي المقابل: كانت الفئة المؤمنة، وهي تخط طريقها بإيمان وصبر على لأواء هذه الطريق، ضمن تلك الظروف شديدة الصعوبة، والمحن بالغة القسوة.. كانت تعمل ـ على الحقيقة ـ لإسعاد الإنسان أياً كان هذا الإنسان، وأينما كان وحيثما وجد.

ولو عدنا إلى الوراء قليلاً، في السورة المباركة، لرأينا بعضاً من صفات المتقين، التي تشمل الأفراد، كما تشمل ذلك المجتمع الذي بنته يد محمد ﷺ الصنّاع، وهو المجتمع القدوة في تاريخ الإنسان!.

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

إنها ـ وايم الله ـ صورة من صور التكامل التي تؤذن بما يكون من انعكاس التمثل المؤمن الواعي للغاية الكبرى ـ كما أرادها الإسلام ـ على السلوك، وبضرورة أن يأخذ هذا الأمر الجلل طريقه إلى مناهج التربية والتزكية والتعليم، وأن لا تفتقده ثقافة المسلمين والمسلمات بحال!!.

من لمحات الإعجاز.. على ساحة البناء وسورة النحل

سبحان من أنزل على عبده ورسوله ﷺ الفرقان الحكيم، ولم يجعل له عوجاً، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن الإعجاز أنه لا تنفد كلماته، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وددت التذكير بهذه الحقائق بالغة العظم ــ التي لا يدرك كنهها إلا من أنار بصيرته الله رب كل شيء ومليكه سبحانه ــ وأنا بسبيل متابعة الرحلة على ساحة العطاء القرآني في شأن الرباط الوثيق بين العمل والسلوك وبين مبدأ المسؤولية والجزاء، وحظ المرأة المسلمة من ذلك؛ حيث وقفنا واحد من المعالم القرآنية الكريمة على الخطوط العامة المؤذنة بذلك، في مجموعة من الآيات في سورة النحل بدئت بالآية التسعين، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وكان من هذه الآيات قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾الآيات، حيث ختمت الآية الأخيرة بقوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[النحل: ٩٦].

وليس بعيداً عهدنا بأن الآية التي دلت على ترتيب الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، وأشعرت بأن المسؤولية كما شرف بها الرجل شرفت بها المرأة «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...**» هي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ..﴾ الآية وقد جاءت بعد تلكم الآيات في السياق.

وهنا أيضاً ختمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد كان فيما أسلفت من القول: أن من المفيد حقاً التنبُّه إلى فحوى هذا التشابه المعنوي الذي يكاد يصل إلى التماثل حتى في الألفاظ: بين ما ختمت به كل من الآيتين الكريمتين، وهما على التوالي: الآية السادسة والتسعون، والآية السابعة والتسعون.

قلت هذا، لأن ما يمكن أن ندعوه بالتطابق على محور الجزاء، يعطي فيما يعطي من قيم ودروس: أن الذين يلتزمون حدود الله منطلقين من قاعدة إيمانية راسخة يجزيهم الله ذكوراً كانوا أو إناثاً، بأحسن ما كانوا يعملون. وهذه المضاعفة للأجر هي من فضل الله الكريم سبحانه وتعالى.

وعندما نرى هذا الأمر الذي ينطق به نص قرآني قطعي الدلالة بالإضافة إلى كونه قطعي الثبوت: لا يخامرنا شك في أن الذين يوفقون لصالح العمل ـ بما له من أبعاد وشعب ـ ويُكرمون بهذه البشارة العظيمة التي يتحقق شطرها الأول في الدنيا كما يتحقق شطرها الآخر يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً: لا تقاس أعمالهم بالجنس الذي هم منه في الخلق من حيثُ الذكورةُ والأنوثةُ، بل إن القاعدة النورانية التي صوبت الأخطاء، وردّت الأمور إلى نصابها في هذا الباب: قوامها﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أجل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإذا عمل الرجل عملاً صالحاً وهو مؤمن: استحق تلك البشارة العظيمة إعظاماً للأجر في الآخرة، مسبوقاً بالحياة الطيبة التي تسودها الطمأنينة والبعد عن القلق والتشاؤم في الدنيا، ومثل ذلك المرأة سواء بسواء.

ولعل من الخير أن نضيف إلى ما نحن بصدده في هذه البابة من الموضوع: ما يدركه التالي المتدبر للآيات: من أن الآية التي ذكر فيها الصبر مرغَّباً فيه أشد الترغيب: جاءت بعد طائفة كبيرة من الآيات التي حملت إلى الأمة الكثير من الأوامر والنواهي، وهي أوامر ونواه تذكرنا بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك؛ فإنما هو خير يأمر به أو شر ينهى عنه».

فهي أوامر ونواة للعلم والعمل والتطبيق على صورة يتوافر فيها ـ مع العلم بالحكم ـ الإخلاص لله عز وجل، وليست لاستزادة من الترف المعرفي وكفى ـ بله التفكه لا سمح الله ـ؛ الأمر الذي يدل على أن مرحلة العمل والسلوك التي تكون ترجماناً مخلصاً أميناً للمبادىء والقيم، بحيث يتحول مضمون الأوامر والنواهي ـ افعل لا تفعل ـ مع الترغيب والترهيب أو بدونهما أحياناً، إلى وجود حي يملأ ميادين البناء، ويوجه الحركة إلى حيث الإقبال على الله بتجديد العمل الصالح المصحوب بمراقبة الله عز وجل، والقدرة على تحمل ما يعترض المؤمن أو المؤمنة من المصاعب والمتاعب، مع الصبر على ذلك، وهو صبر أولئك الذين يجزيهم الله تبارك وتعالى أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وتحسن الإشارة إلى أن المراد بالصبر الذي لا بد منه: الصبر بكل أبعاده ومدلولاته؛ فهو صبر على الطاعة، وهو صبر عن المعصية، وهو صبر على لأواء الطريق الصاعدة إلى الله، وهو صبر على البلايا والمحن، وصبر على تكاليف التغيير إلى ما هو الأقوم. وما أحلاها كلمات مبشرات تلك التي يعلنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[النحل: ٩٦].

والحياة الطيبة: هي التي تجعل كلاً من المسلم والمسلمة يسهم بإدارة حركة الحياة في ضوء رسالة الإسلام بتفاؤل وعزيمة لا يقهرهما حب العافية، أو الركون إلى الشهوة والهوى، ناهيك عن الرغب والرهب الدنيويين.

وبعد: فإن الحقائق التي نومىء إليها مما أشرقت به النصوص، حرية أن تعلن إعلانها في نفس المؤمن ـ وهو يعمل بها ـ مؤذنة بكمال التصديق بوعد رب العالمين الذي لا تنفد خزائنه، ووعده هو الوعد، وعهده هو العهد، ولا أوفى بعهده من الله.

بوادر اليقظة.. وسورة العصر.. التنبُّه.. وأخذ الحِذر

بوادر اليقظة في دنيا المسلمين اليوم تستدعي كثيراً من التنبيه وإحكام خطط المتابعة التي تضمن الاستمرار وتنفي أذى التعويق والتخذيل. ذلك لأن هذه البوادر تجيء بعد سنوات عجاف طال أمدها، وأصاب الأمة فيها ما أصابها من الضعف والتخلف، وغشّاها ما غشّاها من ظلام التبعية في كثير من الميادين الفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ناهيك عن انحسار تحكيم الشريعة في كثير من بقاع العالم الإسلامي. الأمر الذي بات الرواد يخشون معه الوقوع في المهلكة التي حذر منها قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

والدرس البالغ الأهمية في ذلك: ما كان عليه أولئك الذين صنعوا تاريخنا وحملوا عبء البناء من أول الطريق؛ فقد جمعوا إلى العطاء المجدي على ساحات البناء التي عليها يقوم المجتمع المتكامل القوي: أخذَ الحذر من المعوقات والمثبطات التي قد تحول دون الحجم الكبير للعمل الدائب المطلوب من الفرد والجماعة، كما تحول دون استمرار البناء سليماً معافىً تنمو من خلاله قدرة الأمة الذاتية التي تجعلها صاحبة الكلمة في قضاياها، ونظرتها إلى الحاضر والمستقبل، وما يلزم لذلك من استثمار خيِّر لطاقاتها البشرية والمادية وما أولاها الله من رسالة كانت بها خير أمة أُخرجت للناس.

فلقد كان على هؤلاء الرواد أن يكونوا ــ مع السعي الحثيث لترسيخ قواعد البناء وتنمية الطاقات الفاعلة المؤثرة ــ أن يكونوا مفتحي الأعين على ذلك التحالف غير المقدس بين المشركين واليهود من جهة، وبين المنافقين الذين يعايشونهم ويشايعونهم في المدينة من جهة أخرى.

وثِقل المهمة الملقاة على العواتق ـ وهي تأخذ الطابع العالمي تبعاً لعالمية الرسالة الخاتمة ـ صحِبَهُ الكشفُ عن صنيع المنافقين في محاولة التعويق وإشعاف الهمم عن تحمُّل الأعباء الجسام، وبخاصة على صعيد القتال في سبيل الله، حيث يواجه المسلمون تحديات الكفرة ـ على اختلاف عناوينهم ـ إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل وامتثالاً لأمر الله في إبلاغ دعوة الإسلام للناس.

ولقد تبيّن من خلال الوقائع التي زخر بها التاريخ ـ على اختلاف ألوانها وبواعثها ـ أن غرس العقيدة في النفوس، وبناءَ الأجيال عليها وعلى العمل بحقها، ثم تفتيح الأعين على الأخوة النابعة منها، هو المحور الذي يرسِّخ قدرات الأمة في كل الميادين، لما أن هذه العقيدة منهج كامل للحياة أولاً، ورباط وثيق بين المؤمنين يتعاونون من خلاله على البر والتقوى بأوسع مدلول وأشمله ثانياً: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وإنه لتعاون خوطب به أبناء الأمة بوصفهم مؤمنين، تشد بعضهم إلى بعض هذه الآصرة العظيمة، آصرة عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وانعكاس ذلك على الواقع العملي الذي يتولى المؤمنون إنشاؤه في ضوء الإسلام: نتيجة طبيعية تجعل من هذا الواقع ترجمة عملية حيّة ناطقة للدين الذي آمنوا به، وأعطوا لله ولرسوله الموثق من أنفسهم أن لا يبخلوا بأي بذل مستطاع من الوقت والجهد والمال والنفس، في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، وشريعته هي المحكّمة.

هذا: والكلمات القليلة الجامعة التي حملتها سورة (العصر) بقصرها وغزارة معانيها تشير إلى هذا المنهج المتكامل في العقيدة والعمل الصالح الذي يجب أن يكون ديدن جماعة المسلمين ـ وهو العمل بمدلوله العملي الشامل لأمور الدنيا والآخرة ـ وما ينبغي لذلك من تواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر.

ولكم يحتاج بنيان الحق الذي يقوم به المكلفون في مواجهة تحديات الباطل، من هذه العُدَّة العظيمة وهي الصبر على تحمل التبعات امتثالاً لأمر الله وطمعاً بفضله ورحمته، والربح العظيم متيقَّنٌ عند ذلك؛ إذ إن الصابرين يوفّون أجرهم بغير حساب ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

ذلك لأن العقيدة ــ كما أسلفنا غير مرة ــ منهج حياة، والذين آمنوا بها وارتبطت قلوبهم بآصرتها العظيمة: هم إخوة يتعاونون صادقين على تحقيق ذلك المنهج بإنشاء الواقع العملي من خلاله، والمؤمن للمؤمن كالبنيان كما جاء في الحديث الصحيح يشد بعضه بعضاً ــ وشبّك ﷺ بين أصابعه.

من هنا تقتضينا أمانة الكلمة: أن نشير إلى أن بوادر الصحوة التي تفرح لها قلوب المؤمنين، لا بد أن يصحبها ــ مع المعرفة الدقيقة الواعية بالواقع لما هو ــ انتهاج السبيل الواضحة الحكيمة في ترسيخ العقيدة وبيان ارتباطها بالعمل الصالح بمدلوله العملي الشامل الآنف الذكر، وأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما ظاهرة التعاون الحقيقي وبرهانه على كل عمل بنّاء يؤدي إلى رفعة شأن الأمة وإبراز تميزها وذاتيتها، ويزيح من طريقها ما يعرض من معوقات ينسجها المكر والعداء الدفين للإسلام، وقد يقع ضحيتها المبتلون بقابلية التأثر بزخرف القول وخبيث المخططات وأهلية التقليد الأعمى، وما أكثر ضحايا الغفلة والجهل!!.

وللتاريخ كلمة لا بد أنه قائلها في هؤلاء وأولئك أجمعين وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.